

## حوار حول الخوف

## شخصيات المحاوره:

- صونيا: صاحبة المنتدى الأدبي سيدة ثرية جميلة مثقفة تملك فكراً ليبرالياً وتؤمن بأن الحرية والعدالة أشياء تستحق أن يناضل الإنسان من أجلها.
- سليمان: مثقف يحمل لواء العقل وسيادة قواعده.
- حسام: شاعر مبدع يملك ثقافة موسوعية، محبط.
- جانيث: مؤلفة موسيقية.
- إدوار: مغترب ثري.
- زينب: طبيبة نسائية.

صونيا: أول البارحة كنت في دبي في ضيافة أحد المنتديات الأدبية الذي تحييه  
شيخة مثقفة تؤمن بالحدائثة والتطور وتعتبر الكلمة العقلانية جسر عبور للتطور  
والارتقاء، تلبدت السماء بالغيوم فضج المنتدى بالحركة الصاخبة، كانت عيون جميع  
الحاضرات متألقة مشعة والابتسامات مشرقة دافئة، أخذن جميعاً يرددن فرحات  
عساها تمطر.. عساها تمطر.. أرضنا مشتاقه لماء السماء تنتظر الغيث بلهفة.

أنا اليوم متلهفة للاجتماع بكم كتلهف نسوة الخليج لقطرة ماء تنزلها السماء، مشتاقه  
للتحاور معكم في كل شيء وفي لا شيء، في هذا السرّ الإلهي الذي أعطى كل  
البلدان ولم يحرم بلداً من خيره، أعطى بعضها من ماء السماء الوفير لينبت فيها من  
كل زوج بهيج، وأعطى بعضها من قلب الأرض ليدفق جوفها ذهباً أسود أو أصفر،  
وكل عطاء وفي قلبه بذور الحرمان، فالأرض التي أنبتت من كل زوج بهيج كان  
جوفها فقيراً، والأرض التي احترقت من الخارج كان جوفها يذوق لبناً وعسلاً، إنها  
جدلية العطاء وسرّ الخالق في مخلوقاته.

سليمان: كلما تذكرت قوله تعالى "وما خلقت الخلق الا ليعبدون أي ليعرفوني"  
ازدحمت في مخيلتي آلاف الصور، وفي خاطري آلاف الأفكار والتهويمات، فالقول  
يكرس حقيقة أنّ من لا يعرف الله لا يعبده حتى ولو كان غارقاً في طقوس العبادة  
التكليفية حتى أذنيه، والقول يوحي أنّ الموجود العاقل مهما علت منزلته أو تدنت، لا  
يكتمل وجوده الا بمعرفة الآخرين له ومعرفة هو بالآخرين، حتى الله سبحانه وهو  
رمز الكمال والجلال والقدرة، وهو المعبود بذاته دون أن يعبده أحد، والموجود بذاته  
دون أن يحتاج لوجود أحد، شعر في لحظة معنوية في زمن معنوي، أنه بحاجة الى  
إظهار قدرته، والاعتباط بجمال وجوده متألئناً على مرايا ذوات الآخرين، فخلق  
الخلق ليغتبط بمعرفتهم له ويغتبطوا بدورهم باشراف أنواره الشعشعانية على مرايا  
ذواتهم، انها جدلية العلاقة بين الخالق والمخلوق.

حسام: لكل موجود عاقل جدليته التي ترسم مسار وجوده، أنا الشاعر الذي تولد  
كلماتي من رحم المعاناة فأعيش لحظات يقطع الألم فيها أحشائي، ولكني عندما أرى  
كلماتي كيانات حية تمارس وجودها المستقل عني يمثلء قلبي فرحاً وأعيش لذة  
ماورائية، انها لذة الخلق والابداع، والفرق بين إبداعنا وإبداع الله، أنه تعالى يبديع

من ذاته، أما نحن فنبدع من أشياء نتفاعل معها، أو توهب لنا من موجودات أخرى، أكثر قصائدي أبدعتها من ذلك الشلال من النور الدافئ الذي ينهمر من عيني صونيا، وأحياناً من ترجرج أردافها. صونيا هي مصدر وحيي الالهي الذي يخاطبني من جسد إنساني أستطيع أن أسمع إيقاع خطواته بأذني، وأشم رائحة عبيره بأنفي، وأرى توهجه بأب عيوني، ولكني إذا أردت أن أقبض عليه بيدي، كنت كمن يقبض على الريح، أم كمن يحاول أن يمسك بخيوط الشمس.

زينب: كأنك يا صديقنا حسام تريد أن تقول أنّ النساء يوحين بالابداع ولكنهنّ لسن مبدعات، يوحين بالشعر العلوي ولكنهنّ لسن شاعرات ولا علويات، أنتم الرجال أخبث مخلوقات الله، أعرفكم من مشاكل النسوة اللواتي يدخلن عيادتي، في قلب كل واحدة منهنّ جرح عميق لا يلتئم، سببه عدم الثقة بالرجال والخوف منهم في أكثر اللحظات حميميةً واتحاداً، تصوروا جسدين يتفاعلان مع بعضهما بأشد ما يكون التفاعل حميميةً وبنفس الوقت يعيش أصحابها حالة عدم ثقة متبادلة وخوف متبادل، كلُّ يخاف الآخر، وكلُّ يتربص بالآخر وينافق عليه ويتملقه ويتزلف له.

إدوار: شيءٌ طبيعي أن تعيش المرأة في علاقتها بالرجل الخوف والقلق، لأن الرجل هو الفعل والمرأة هي ردة الفعل، الرجل هو الفاعل والمرأة هي المنفعل، وكل شيء منفعل أو ردة فعل هو شيءٌ ضعيف، والضعيف دائماً قلق وخائف.

صونيا: لا أستغرب هذا التنظير من تاجر جمع ثروة طائلة من أعماله في أفريقيا حيث كان يلبس الحقّ بالباطل والتعب بالحيلة والذكاء بالدهاء والانجاز بالابتزاز، إنك كمن يلبس نحاساً بذهب ليبيع البضاعة ذهباً خالصاً. صحيح أنّ الفاعل في مركز القوة والمنفعل في مركز الضعف، وصحيح أنّ الضعيف دائماً قلق وخائف، ولكن من قلل لك أنّ الرجل دائماً في مركز الفاعل والمرأة دائماً في مركز المنفعل، فقد تكون المرأة في مركز الفاعل والرجل في مركز المنفعل، المرأة في مركز المفيد والرجل في مركز المستفيد. عليك أن تصحح تنظيراتك يا صديقنا إدوار فالمفيد دائماً الوقي رجلاً كان أم امرأة، والمستفيد دائماً ضعيف رجلاً كان أم امرأة، وأنا أظنّ أنّ أكثر رجال الغد سيكونون في موقع المستفيد وليس في موقع المفيد، من

يرى شبان اليوم وكيف يهربون من واجباتهم ومسؤولياتهم ويغرقون في عبثيتهم لن يكون متفائلاً بمستقبل الرجال.

جانيت: الخوف هو العدو الذي يمنع الانسان من تحقيق إنسانيته رجلاً كان أم امرأة. والخوف لا يأتي صدفةً أو قضاءً وقدرًا، إنه كائنٌ معنوي مسخ يُصنع في مصانع الفكر الديني الغيبي الخاطيء، او في مصانع الأنظمة الديكتاتورية الأمنية. لنأخذ مثلاً عن الغيبية الدينية التي تصور الله جباراً منتقماً يبطش بكل من يخالف أو امره ونواهيه، بطشاً لا رحمة فيه ولا شفاعاة، ولا قبول أعذار ولا إعطاء فرص للتوبة، فالقيامة عندما تقوم، وبرأي الوسطاء الدينيين، ستقوم لا محالة وعندها يقسم لنا الناس الى قسمين، أقلية في الجنة حيث استباحة كل الملذات المعقولة وغير المعقولة التي كانت النواهي قد حرمتها في الحياة الدنيا، وأكثرية في جهنم حيث الاحتراق بالنار المتأججة، وكلما نضجت جلود الخاطئين بدلت بجلود أخرى، فالعذاب أبدي سرمدي له بداية وليس له نهاية، والمأكل زقوم وضريع والمشرب ماءً صديد ومهلاً يشوي الوجوه والبطون.

أن تُبنى علاقة الانسان بالله على مبدأ الخوف والترهيب لعمرى لا يوجد أقسى من ذلك ولا أشد ظلاماً وظلاماً.

حسام: أنا كشاعر متواضع لا أستطيع أن أبدع قصيدةً إلا إذا تملكني الشوق للابداع، وأظنني أتصور أنّ الله عندما أبدع الكون والانسان، اشتاق ذلك الابداع وتلهف لانجازه، والشوق ثمرة من ثمرات المحبة والالفة فيه الكثير من الدفء والنعومة والحنان، ولذا أستطرد في التصور لأقول، إنّ الله متواصلٌ مع كائناته الحية والجامدة، العاقلة وغير العاقلة، بكثير من الدفء والحنان والعطف والمحبة والالفة والاستئناس، وأتصور أيضاً أنّ الله لم يفرض علينا أوامر ونواهي، بل ليس له أوامر ونواه على الاطلاق، فلو كانت له أوامر ونواه لما استطاع أحد أن يخالفها وإلا كان الله غير قادر، وكان علمه غير شامل، وحاشا الله من ذلك. ولكن الله أعطانا العقل والحرية والقدرة على تمييز الحق من الباطل والعدل من الظلم والخير من الشر، بنتيجة وليدة مقدسات وأنّ لكل فعل ردة فعل تساويه في القوة، وبالتالي إنما هي

أعمالنا تترد علينا بخيرها أو شرّها بعدالتها أو ظلاميتها إن لم يكن ذلك في حياتنا الحاضرة ففي حيواتنا اللاحقة.

زينب: أستنتج من ذلك أنّ الله محبة محض وإفة محض وعطف محض ولا وجود لتخويف أو ترهيب.

صونيا: حتماً لا وجود لترهيب، وكذلك لا وجود لترغيب، فهذه عقلية تجار أو عقلية تسويق، وهل الله بحاجة لأعيب العقلية التجارية لكي يسوق مبادئه.

سليمان: علاقتنا مع الله ولية حب كلي يثمر شوقاً نورانياً لا حدود لتوجهه، ولذة في الانجذاب والتواصل لا حدود لحلاوتها، نحن نعشق الله ونستأنس بوجوده وتنزهه عقولنا على أن يكون شبيهاً لمخلوقاته. وهذا الحب المتأجج منبثق من ثقة مطلقة لا يقاربها الشك من أمامها أو من ورائها، إنه الحب المبني على الثقة المطلقة والاحترام المطلق والشوق الذي لا يعرف حدوداً يقف عندها، ولكنه يعرف أنّ العقل هو قائد المسيرة وليس أي شيء آخر.

جانيت: عندما أجلس وراء البيانو وأبدأ بالعزف، أدرك بكل حاسة من حواسي ما معنى التآلف والتوازن والتناغم والانسجام، أدرك أنّ اللحن الخالد رغم أنه مركب من نغمات متباينة في طبيعتها، فبعضها قصيرٌ وبعضها طويل، وبعضها حاد بارد وبعضها دافئ مخملي، إلا أنّ هناك قوة غير منظورة تؤالف بين هذه المتباينات لتجعل منها لحناً له شخصيته الأحادية المستقلة الخاصة به. هكذا أتخيل الله هو الحب العظيم الذي يفيض على كل الموجودات والنفوس ليؤلف بينها بالمحبة والالفة، وليجعل منها كوناً واحداً مترابطاً متضامناً متناغماً في كل تحركاته وما تنمّر هذه التحركات، هكذا أتخيل الله إيجابيات لا يقابلها سلبيات فالسلبيات في ذواتنا التي عجزت عن السعي لبلوغ كمال نوعها والتواصل مع أصلها.

صونيا: ربما أفهم من كلامكم هذا أنّ الخوف ليس إلا ردات الفعل السلبية لما قمنا به من أعمال تناقضت مع مبدأ التناغم والتوازن الذي يخلق الوحدة في المتعدد، والثابت في المتحركات. وربما أفهم أيضاً أنّ ثقافتنا في التواصل مع أصلنا الإلهي،

وخمود نار الشوق في انجذابنا الى هذه السعادة اللامحدودة، هو الذي زرع الخوف في أفئدتنا والقلق في أجهزتنا العصبية.

سليمان: أنا أظنّ أنّ الله عندما أبدع النفوس الانسانية طبع على مرآيا جواهرها حقائق الوجود الأساسية التي سميناها نحن " البديهيات "، وجعل من هذه البديهيات قوة مميزة تجعل الانسان قادراً على تمييز ما ينفعه لتحقيق إنسانيته وبلوغ كمال نوعه، وما يضره فيبعده عن جوهر إنسانيته ويعيده الى مرتبة البهيمية، وأظن سبب الخوف الرئيسي هو في الممارسات المتتابعة التي مارسها الناس متجاهلين تلك البديهيات، بل سائرين في النهج المعاكس لحقائقها، وفي هذه الحالة يبدأ الانسان في خلق ذرائع لنفسه يحاول أن يفتع نفسه أنّ تصرفاته محقة وليست خاطئة وعادلة وليست ظالمة، وهو في قرارة نفسه يعلم أنّ ما يقوم به خداع ونفاق، وأنّ طبع المعاندة فيه هو الذي يجره الى هذه المواقف فيخاف ويحاول أن يهرب من خوفه الى مزيد من المعاندة التي تخلق مزيداً من الخوف، حتى تصبح الحياة برمتها خوفاً وعدم ثقة وشكاً وتربّصاً دائماً للشرّ وتوقعاً دائماً للسوء.

إدوار: برأيي المتواضع أنّ طبيعة الخوف مرتبطة بطبيعة الملكية، فالانسان بوعيه وبلا وعيه يسعى لتملك أكبر قدر ممكن من المنافع المادية والمعنوية، فالرجل يسعى لتملك أجمل امرأة والانفراد بها لنفسه، وليته يكتفي بذلك بل يسعى لتملك مجموعة من النساء، وإذا كنّ في أيادي الغير سعى لاختطافهنّ بقوة المال والنفوذ، كذلك يسعى لتملك أخصب قطعة أرض وأكبر بيت وأكثر كمية ممكنة من الذهب والعملية الصعبة، ثم ينتقل الى النفوذ والرئاسة، ثم الى مصادرة عقول الآخرين وحرّياتهم واستزلامهم وكأنهم عبيد أو روبوتات وبما أنّ غريزة الملكية طاغية على بقية الغرائز، فمن الطبيعي أن يرافق ذلك الخوف الدائم والقلق المستمر. أولاً من أجل زيادة هذه الملكية واختراع الأساليب الملتوية وغير المشروعة من أجل ذلك، ثم من أجل المحافظة على هذه الملكية وعدم السماح للأقوياء باختطافها بالقوة أو المراوغة.

صونيا: معنى كلامك أنّ الخوف لعنة أزلية انغرزت في قلوب البشر، ولا سبيل لمقاومتها والتصدي لها ومحاولة الانتصار عليها وهذا ما لا أقوّر به أبداً.

صحيح أنّ الملكية المتوحشة تولد الكثير من الخوف والقلق والجشع والطمع، ولكن أسوأ ما تولده هو الاستكبار الذي يظنّ صاحبه معه أنه خلق من طينة متفوقة على الطينة التي خلق منها بقية البشر، هذا الاستكبار يجعل صاحبه الممتلك يعتقد أنّ السماء أعطته ميزة الاستعلاء والسيادة والتحكم بمصير الآخرين، بل واستعبادهم وتسخيرهم لخدمته في إرضاء ميوله وإشباع ملذاته حتى المحرمة منها. ولهذا يا صديقنا إدوار بقدر ما كنت دقيقاً في تحليلك للأمور بقدر ما تجاهلت أنّ الملكية يجب أن تروض بالقوانين العقلانية، والأنظمة الاقتصادية والاجتماعية التي تستهدف بالدرجة الأولى احترام حقوق الانسان، واحترام هويته كإنسان، وعدم العبث بهذه الهوية، وذلك عبر ترشيد لعبة الرأسمال وتوظيفه في إنماء اقتصادي يوفر فرص العمل ويخلق مجتمعاً متوازناً، كل فرد فيه موجود في المكان الذي تؤهله إمكاناته بأن يكون موجوداً فيه. ولهذا دعني أقول أنه حيث لا يوجد عدالة دائماً يوجد الخوف والقلق والهواجس والحقد الأسود.

إدوار: مشروع ترويض الملكية وتأطيرها في أطر قانونية تثمر العدالة، مشروع وهمي لا يوجد إلا في رؤوس الحالمين أمثال أفلاطون وماركس وكمال جنبلاط، وكل هذه المشاريع عندما حاول البعض تجسيدها واقعاً على الأرض لم تثمر إلا مزيداً من الأخطاء ومزيداً من الخراب الذي قاد بدوره الى مزيد من الخوف ومزيد من القلق والاضطراب.

حسام: أنا شخصياً أميز بين الخوف والقلق، فالخوف عامل سلبي يعبث بقوانين العقل، ويهدم البنية المنطقية للتفكير، الخوف يساهم في إضعاف الجانب الالهي النوراني الخلاق في روح الإنسان، ليجعل الغرائز والشهوات تتحكم، ولما كانت الشهوات بطبيعتها متضادة، إشباع أي واحدة منها يقابله حرمان الأخرى بل اضطهادها، ولذلك هي في مرحلة صراع مستمر مع بعضها، كان الخوف هو المسبب في انتزاع مبدأ التوازن في طبائع النفس العقلانية وطبائع الجسد الشهوانية، ونحن نعلم أنّ كل شيء غير متوازن هو شيء ظالم، وكل شيء ظالم هو مولد للألم لا للفرح، للتشاؤم لا للتفاؤل، للتقليد والإتباع لا للخلق والابداع.



جانيت: بداية الديكتاتورية قناعة عند مركز قوى معين أن إيديولوجيته هي الصحيحة التي تقود الى بناء المجتمع النموذجي وباقي الإيديولوجيات كلها خاطئة ولا تقود إلا الى الضعف والانحلال والفقر والاحتكار، ثم تأتي ظروف سياسية واقتصادية تساعد مركز القوى هذا " سواء كان حزباً أو منظمة دينية أو سياسية" الى الامساك بالسلطة، وما أن يصل الى السلطة حتى يحتكرها لنفسه أولاً فيبدأ بتصفية كل القوى الأخرى سواء مناوئة أو حليفة تحت شعار أنه يمهد الطريق للوثبة النهضوية التي بشر بها، وتصفية هذه القوى المناوئة والحليفة يتطلب بناء أجهزة أمنية مخبرانية تبدأ بإحصاء أنفاس الناس وتلج الى أعماق خصوصياتهم، ثم تستغل ما جمعت من معلومات لابتزاز أصحابها وتمزيق وحدتهم وتقسيمهم الى فئات بعضها يعادي البعض الآخر فتتشر البغض والانقسام وأسلوب التفرقة والشرذمية والمنفعة واستغلال الخصوصيات الشخصية هو الأسلوب الأمثل لهذه القوى الصاعدة، حتى إذا تمّ ذلك بدأ الاضطهاد بالاعتقال والتعذيب والتعدي على كرامة الانسان في جسده ونفسه ونشر إشاعات ذلك التعدي والتعذيب حتى يرتجف الإنسان العادي الذي ما زال حراً وبعيداً عن التعدي، يرتجف رعباً من الأخبار التي تصل اليه، فيصبح مهياً للتدجين قبل أن تصل اليه أيادي التدجين، ومهياً للكذب والنفاق والتزلف والاستزلام وإظهار ما يضر حتى يعتاد على ذلك فتزدوج شخصيته ويصبح وكأنه إثنان في واحد، تتضخم هذه المسألة بخروج أفواج من المعتقلين ولكن بأدمغة مغسولة وبتعهدات بتقديم تقارير دورية الى المراجع الأمنية، فتصبح علاقة الناس بهم وبيعضهم علاقات ارتياب وخوف وقلق ومداهنة، حتى أنّ الرجل يخاف أن تكون زوجته التي تقاسمه الفراش قد جندت مخبرات عليه، ويخاف الأخ من أخيه والأب من ابنه والجار من جاره، ثم تبدأ هذا الأجهزة بتوظيف المرجعيات الدينية أبواقاً دعائية لها وكذلك أصحاب الأقلام والقائمين على الصحف تحت شعارات مختلفة أشهرها على الاطلاق " صوت المعركة يعلو على كل صوت" ، والترويج بأن الأفكار الجديدة بدع والبدع هرطقة، وكل ذلك من زرع الأجنبي ليخرب علينا حضارتنا وديانتنا. ثم يصل التخريب الى المدارس والجامعات حيث تقع المناصب في يد الأزلام الذين يروجون لفكر أساسه الشعارات الفارغة وعلك الصوف، وبهذه الطريقة يصادرون عقول الناس تدريجياً حتى لا يبقى منها شيء، ويصادرون

حريات الناس تحت شعارات بناء مجتمع متجانس بأفكاره ورؤيته، وفي هكذا أجواء العقلاء والمقننون يرحلون ويغادرون الى بلاد حرة ديموقراطية يستطيع أن يفكر فيها الانسان بصوت مرتفع، ولا يبقى في البلاد إلا الألام وتجار الأديان والسامسة، والعبيد والفئات الاقتصادية التي تتقاسم الجبنة مع أصحاب السلطة.

حسام: دعوني أخبركم عن حادثة جرت لصديق لي هو أستاذ جامعي يدرس مادة الفلسفة والى جانب ذلك هو خطيب وشاعر وصاحب ملتقى ثقافي في الجبل، الجميع يعرفون أفكاره ويتعاطفون معها، في يوم من الأيام أتاه مخبر الى الجامعة وقال له أن سيده في (المركز) يريد مقابلته ومن الأفضل أن يذهب الآن ولا يترك الأمر الى الغد، لم يتوجس الرجل أي شرّ واعتبر أن الأمر غايته التعارف على رجل فكر ونشاط ثقافي ليس إلا. وصل الى (المركز) فأدخله عسكري الى غرفة صغيرة ضيقة مملوءة بأحذية الجنود العتيقة التي تفوح روائحها النتنة وأقل الباب، وتعجب الدكتور وأخذت الهواجس تتلاعب بمخيلته وبدأ مؤشر ثقته بنفسه يهبط رويداً رويداً، مضت ساعة ومضت ساعتان ومضت ثلاث ساعات ولا من يفتح الباب ويسأل عنه، أخذ يدق الباب دقاً عنيفاً وعندما حضر العسكري قال له أنا فلان الفلاني دكتور في الجامعة ومعروف في الجبل بين أهلي وأبناء منطقتي، الظاهر يوجد خطأ ما عندكم فأرجو أن تبلغ المسؤول هذه المعلومات ولكن العسكري نظر اليه شذراً وقال له إياك بعد الآن أن تطرق الباب وإلا... بعد ساعتين من الانتظار بين أحضان القلق في تلك الغرفة الضيقة برفقة الأحذية والروائح فتح الباب وحضر العسكري فقال للدكتور قم قابل الضابط المناوب المسؤول الكبير سيحضر بعد ساعة، وصل صديقنا الى غرفة الضابط المناوب فاستقبله بعينين حراوين تشبهان عيني ذئب مسعور، وصرخ فيه صرخة مدوية.. أنت كذاب أنت منافق أنت حشاش تشم الكوكايين وتجرب تلامذك الى شمة، تستغل حب تلامذك لك لتروج الكوكايين.. يا حشاش يا كذاب يا منافق سأعرف كيف أربيك.. في لحظة كأنها دهر جالت في مخيلة صديقي صور الزنانات المتعفة والتعذيب بالدولاب والصلب، وأخذت تتراقص أمام عينيه تلك الأخبار المرعبة التي كان يسمعها عن عالم الاعتقالات... تعرية السجين وضرب أعضائه التناسلية بالصاعق الكهربائي ثم رمي البول والغائط

عليه. وأخيراً اغتصابه جسداً وروحاً... إصفرّ الرجل وأخذ يرتجف وبدأ يعاني صعوبة في التنفس وأوشك على الاختناق، والضابط يصرخ ويحملق بتلك العيون الذئبية. كذاب.. منافق.. مخادع.. حشاش.. تضحك علينا من تظن نفسك.. واستمر الوضع على هذا المنوال نصف ساعة لم يبق فيها فكرة سوء ولا صورة رعب إلا ورآها صديقي المسكين أمامه وجهاً لوجه حتى أنه تمنى لو كان يحمل مسدساً لأطلق النار على نفسه ليرتاح من هذا العذاب الذي لم يكن يتصور وجوده سابقاً. بعد نصف ساعة محنة دخل عسكري آخر وقال للضابط المناوب سيدي سيدي هناك خطأ.. الرجل الذي نريده اسمه مطابق لاسم هذا وليس هذا الرجل هو المطلوب. وفي لحظة واحدة زالت الحمرة من عيني الضابط المناوب وأخذ يبتسم ويضحك وانقلب من وحش مفترس الى إنسان عادي يحاول أن يكون مهذباً. المعذرة يا دكتور.. المعذرة يا دكتور لك عندنا دينة سنعيدها اليك في الوقت المناسب.. كل شيء تمام تستطيع أن تغادر. وعلى الباب عاد الضابط ليقول يا دكتور أنت رجل عاقل ما حصل في هذه الغرفة يجب أن يبقى في هذه الغرفة. أنت رجل عاقل، وخرج صديقنا نصف ميت وعندما وصل الى البيت اتصل بأخيه الطبيب قائلاً له أنّ أعصابه متعبة ويوجد ضيق في نفسه وخفقان شديد في قلبه وطلب منه أن يحضر حالاً مع الأدوية المناسبة.

صونيا: كم تكون الحقائق في بعض الأحيان أشد غرابة من الخيال، من يصدق أنه في مجتمع يحاول بظاهره أن يكون ابن عصره، عصر الديموقراطية واحترام حقوق الانسان وثورة التكنولوجيا يمكن أن يحصل هذا.

جانيت: هذا نتيجة ما فعلناه بأنفسنا، تنافسنا وتقاتلنا على الكراسي والغنائم تحت شعار أننا نتنافس ونتقاتل من أجل مزيد من الديموقراطية والعدالة الاجتماعية، وإذا بنا نستعين بالغرباء على بعضنا البعض، وها هي النتيجة أصبحنا رهائن من استدعيناهم لينصرونا على إخواننا في الوطن، إخواننا الذين كانت أفكارهم في الإصلاح متباينة مع أفكارنا، فإذا بنا نصبح رهائن مسلوبي الحرية والكرامة، تستباح حرياتنا وكراماتنا وتصادر عقولنا ونحن ما زلنا نراهن على الغرباء، وكل منا يتوهم أنّ أولئك الغرباء ينصرونه على خصومه، يا للعار كم أثبتنا أننا قبائل

بدوية لا تعرف من الحضارة إلا قشورها، كم أثبتنا أننا بجوهرنا تجار وسماسرة لا نستحق لقب مواطنين.

إدوار: مشكلتنا الأساسية برأيي هي الانتماء الى الوطن، ولكي ننتمي الى الوطن يجب أن نفك ارتباطنا بالانتماء الى القبيلة والعشيرة والطائفة والمذهب وقبل كل ذلك يجب أن نفك ارتباطنا بالانتماء الى المال والسمسة تلك اللعنة التي ورثناها عن الفينيقيين.

صونيا: وما بال الفينيقيين لقد كانوا أصحاب حضارة نشروها في الجهات الأربعة.

إدوار: ولكنهم عاشوا أزمنتهم مرتين مرة الى الفراعنة ومرة الى الفرس ولم يكونوا أسياد أنفسهم في يوم من الأيام. ولكن ما بالنا ذهبنا بعيداً فليتابع حسام حديثه عما جرى لاحقاً لصديقه.

حسام: زارني في اليوم الثالث للحادثة وأخبرني ما جرى بالتفصيل، وطلب رأيي في الوقائع وما تعنيه وما الهدف منها، قلت له بعد طول تفكير أخبرني ماذا فعلت في الثلاثة أشهر الأخيرة قبل الحادثة، هز رأسه وقال لا شيء غير مألوف، لقد وقفت خطيباً على منابر الجبل في مناسبتين، واحدة في ذكرى استشهاد المعلم كمال جنبلاط تكلمت فيها عن جدلية العلاقة بين الوعي والحرية في فكر المعلم واستخلصت من فكر المعلم ثلاثة أعداء لهذه العلاقة العدو الأول الأنظمة الديكتاتورية المخابراتية، والعدو الثاني الأنظمة الديكتاتورية الدينية، والعدو الثالث تسخير الوعي لخدمة المنفعة وليس لخدمة الحقيقة. والمناسبة الثانية في يوم المرأة العالمي حيث طرحت قضية تحرير المرأة بواسطة العلم والعمل والثورة الثقافية على المفاهيم الدينية الغيبية التي لا تستند الى أي منطق يقره العقل. ثم تكلمت في ندوتين أقيمتا في بيروت ونشرت مقالاً عن العلاقة الديالكتيكية بين العقل والحرية وآخر بين الدين والسلطة ثم ثالث عن نفسية الديكتاتور، أجبته تتحدث عن علاقة العقل بالحرية وعن تواطؤ المرجعيات الدينية مع المرجعيات السياسية في استلاب حريات الناس وعقولهم، وتقول لك لم تفعل شيئاً، ألا تعلم يا صديقي أن مجتمعات العبيد التي تربت على الاستزلام والوشاية والكذب ومبدأ فرق تسد لا تستمرئ

الكلام عن علاقة العقل بالحرية وخصوصاً على منابر الجبل الذي يعتبر قلعة حرية مستعصية على الدخلاء منذ مئات السنوات.

ما حصل لك هو رسالة تحذير وإنذار بأنك إذا عاودت صعودك على المنابر وخصوصاً في الجبل، وإذا عاودت نشر مقالات بنفس المنهج، وإذا عاودت ندواتك بنفس المواضيع، سيكون مصيرك في المرة القادمة ليس التخويف والترهيب بل التنفيذ عملياً، أي التوقيف والتعذيب بما لم يحلم به شيطان رجيم، هذه الأنظمة المخابراتية أنت لا تعلم مدى علاقتها بالشيطان، تتبرقع خارجياً ببرقع التدين وهي تمارس أقصى درجات العهر في استباحة كرامة الانسان ومصادرة هويته الانسانية، عدو هذه الأنظمة هو العقل والفكر المنطقي والفكر النقدي، وصديقها العزيز هو الفكر الغيبي الأمني والدعايات والشعارات التي تدغدغ الغرائز السفلى والرغبات المحرمة.

إدوار: وماذا فعل صديقك لاحقاً؟

حسام: راسل إحدى الجامعات الكندية وحصل منها على وظيفة أستاذ مساعد في مادة الفلسفة اليونانية، وها هو الآن في مونريال يستطيع أن يفكر بصوت مرتفع، ويكتب ما يقتنع به عقله وتشعر به أحاسيسه، منذ مدة يسيرة عرفت أنه سيصدر كتاباً باللغتين الفرنسية والعربية في نفس النسخة وهو عبارة عن محاورات فكرية تضيء على مواضيع العقل والحرية والفكر المنطقي والفكر النقدي.

زينب: شأهت وجوهكم لقد موتم قلبي خوفاً وهلعاً كأنني أرى أمامي الشيطان بعينييه الحمراءوين، وأسنانه الزرقاء وأظافره السوداء، ينقضّ عليّ ليمزقني إرباً، إني أرتجف رعباً وأفكاري تنقلب الى كوابيس، ما هذا الذي نسمعه يحصل في بلادنا، أيمن أن تكون الحقائق بشعة الى هذا الحدّ، أيمن أن نكون قد انحدرنا الى هذا الدرك الأسفل.

صونيا: ما لطف فإلى عالم العقل يرقى وما كثف فإلى العالم السفلي ينحدر، ويتحدثون عن جهنم القيامة، لا يوجد أبشع وأقسى وأشد ظلامية من جهنم الواقع، جهنم الظلم والاستبداد والفرز الطبقي والمذهبي الحادّ، جهنم مصادرة العقول

والحريات، والتعدي على الكرامات، جهنم استعباد المرأة ببرقع أو حجاب أو جهل أو ابتزاز أو ارتهان، جهنم التلاعب بالأمن الاجتماعي والاقتصادي للمواطنين، جهنم البطالة والمخدرات والفكر العبثي والفكر الغيبي والازدواجية في الشخصية، إنه الشرق العتيق هذا المستنقع الآسن الذي مياهاه صديد وطعامه ضريع منذ آلاف السنين، شرق الفرعون الإله والخليفة الذي يستسقى به المطر والسلطان الذي يرمي نساءه بالبوسفور لأنه ملّ نكاحهنّ أو لم يعد عنده القدرة الجسدية على النكاح.

سليمان: إنه شرق الخوف، والخوف الإبن الشرعي للكذب، والكذب الإبن الشرعي للازدواجية في الشخصية، والازدواجية الابن الشرعي للنفاق، والنفاق الابن الشرعي للارتهان ولمسلكية السماسرة والقوادين والمخبرين والمخلوقات المسخ التي لا تعرف معنى الانتماء الى أسرة ومجتمع ووطن وإنسانية.

الجميع: الخوف عدو الانسانية فلنتضامن ونترابط وليشد بعضنا إزر بعض لنستطيع مجابهة هذا العدو المشترك الذي يحاول أن ينتزع منا هويتنا الانسانية، الخوف الابن الشرعي للكذب والنفاق والازدواجية والعبث والعودة الى مرتبة البهيمية.

كمال يوسف سري الدين